المحاضرة الخامسة

خصائص اللِّسان البشري

قبل التطرق لخصائص اللِّسان البشري نودُّ استثمار تعريفين للغة يُلخِّصان أهم مميزات هذه الظاهرة الإنسانية.

1- يعرف دي سوسير اللغة بأنها:"نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية، يحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعا من جماعته."[1]

2- وهي عند روى.سى.هجمان:"اللغة قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية يتواصل بها أفراد مجتمع ما"[2]. بالنظر التحليلي والتمعن الجيّد في التعريفين السابقين يمكن لنا التوصل إلى أهم الخصائص التي يتميز بها اللِّسان البشري والمتمثلة في:

1- اللغة مكتسبة:

إنّ الفرد الإنساني لايولد مزودا بلغة معينة يهتدي إليها تلقائيا في مرحلة ما من عمره، وسرعان ما يتمكن منها تمكن البالغين من دون تعليم الكبار له إيَّاها، وإنما يكتسب لغة مجتمعه الذي ينتمي إليه فأبواه يعربانه أو يمزِّغانه أو ينجلزانه أو يفرنسانه ...وذلك حسب المحيط اللِّساني الذي يعيش فيه.وعملية اكتساب اللغة لها جانبان أساسيان هما:

1-1- الملكة اللغوية "الجانب الفطري":

وهي المقدرة الإلهية المودعة في الذهن الإنساني تجعله يكتسب اللغة عن طريق السمع الذي هو عند ابن خلدون أبو الملكات اللسانية.[3]ثم وفق الله من بعد ذلك الإنسانَ بالجهاز النطقي المهيأ لإنتاج الأصوات المعبرة.

1-2- الجانب الإرادي "البيئة":

وهو عند ابن خلدون كذلك "ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخِر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا".[4] ومن خلال هذا الجانب يكتسب الفرد الإنساني لغته،وذلك بتعرضه للتواصل المباشر المستمر مع أفراد بيئته، بدءا بوالديه حيث يكتسب لغته بصفة مدهشة. لذا يعتبر عمل الفرد في عملية اكتساب اللغة عملا ذاتيا خلاقا ينبغي دراسته من حيث هو خاصية إنسانية مميزة.[5]كما أن اكتساب اللغة

([1])- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث،دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة،2001،ص43،42.

([2])- روسي هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية،تر: داود حلمي أحمد السيد، ص 44.

([3])- ينظر: ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1984،ص 1057.

([4])- م ن، ص 1057.

([5])-ينظر:ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت ،ط2، 1987.
ص 19.

ليس"له علاقة بالذكاء، فالطفل الذكي والغبي على السواء في اكتساب نظام لغوي كامل...واكتساب اللغة عملية تدوم مادامت الحياة في البيت أو في المدرسة أو في الجامعة أو في العمل".[6] وهذا ما ذهب إليه رينيه ديكارت حين قال:"ينبغي أن يوضع في الحسبان أنه لا يوجد غبي أو بليد، حتى دون استثناء المعتوهين، فمع أنهم عاجزون عن نظم مختلف الكلمات معا لتكوين جملة يعبرون بها عن أفكارهم، فإنه في مقابل ذلك لا يوجد حيوان يمكنه أن يفعل ذلك ولو توفرت له الكفاءة التامة والبيئة الملائمة".[7]

2- اللغة نسق/ نظام :

من المتعارف عليه أن لغات العالم كلها تحتوي على قواعد وأسس متواضع عليها ،هي نظامها اللغوي والذي من شأنه أن يحفظها من اللحن عبر مختلف الزمان والمكان مع أبنائها أو مع غير أبنائها، كما أنه العامل المساعد على تحسين أداء المتعلمين.

إن النظام اللغوي لدى أية أمة من الأمم يحتوي على مجموعة من الأنظمة (أصوات، صرف، نحو، دلالة) ولكل نظام نسقه المؤدى في عملية الكتابة أو التعبير (قواعد الإملاء، قواعد التصريف، قواعد التركيب، قواعد وضوابط الدلالة في الاستعمال) ومثال ذلك في الجانب الصوتي نجد الوحدة الصوتية الواحدة تختلف في نطقها بالنظر إلى موقعها في بنية الكلمة. فالراء مثلا تفخم في حالات وترقق في أخرى على النحو التالي:

- تكون مفخمة إذا كانت مضمومة أو مفتوحة مثل:1/ رَبِّ اغفر لي.2/ رُبَّ نافعة ضارة .

- مرققة إذا كانت مكسورة مثل: هؤلاء رِجال مخلصون.

والأصوات اللغوية عددها محدود في كل لغة "فالمجتمعات البشرية تستخدم ما بين أحد عشر وسبعا وستين صوتا مفردا. ففي اللغة الانجليزية مثلا ما يقارب من 45 صوتا،وفي اللغة الايطالية 27 صوتا،وفي اللغة العربية حوالي 40 صوتا بينما لا يوجد في لغة سكان جزر هاواي أكثر من 13صوتا مفردا".[8]

([6])-مدخل إلى علم اللغة، محمد حسن عبد العزيز،ص12.

([7])-جورج يول، معرفة اللغة، محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،1999،ص 31 .

([8])- نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 119.

والشيء نفسه مع المستوى الدلالي فمثلا:"عندما يريد المتكلم أن يشير إلى تنفيذ حكم الإعدام في شخص ما بقطع رقبته بإمكانه أن يقول: "ضُرِب عنقه" مثلا. ولكن ليس له أن يقول:"ضُرِب جيده" مثلا. على الرغم من الترادف الإدراكي بين الكلمتين عنق، وجيد. والسبب هو أن الائتلاف بين الجيد والضرب غير مألوف".[9]

والشيء نفسه على المستوى الصرفي من حيث بنية الكلمة. فالعربية لغة اشتقاقية تشتق كلمات كثيرة من مادة واحدة. عكس اللغات الإلصاقية كالانجليزية مثلا[10].

3- اللغة أصوات:

تعتبر الأصوات في أية لغة إنسانية الأصل، وما الكتابة (الخط) إلا المظهر الثاني للغة بعد الكلام، فكل إنسان يتعلم الكلام بزمن معتبر قبل الكتابة وما صرخة الولادة إلا دليل على ذلك، كما أنه توجد مجتمعات بشرية لا تملك أنظمة خطية ولكننا لا نعرف حتى الآن مجتمعا له لغة مكتوبة ولا ينطق[11]."والحقيقة الباقية حتى الآن أن لغة الحديث هي أهم وسائل الاتصال الإنساني، وأوسعها انتشارا.ومتوسط ما ينتجه الإنسان من حديث أكبر بكثير مما ينتجه من كلام مكتوب، وإيماءات وإشارات، ولهذا فإنه من السائغ للغوي Linguist- على عكس دارس فقه اللغة Philologist- أن يهتم أولا باللغة المنطوقة، ثم ثانيا باللغة المكتوبة".[12]

إن إدراك هذه الحقيقة - اللغة صوتية - اهتدى إليها علماؤنا القدامى ومنهم ابن جني الذي عرف اللغة بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".[13] والأصوات الانسانية ثلاثة أقسام:

1- الأصوات المتعلقة بالجانب النطقي.

2- الأصوات المتعلقة بالجانب السمعي.

3- الأصوات المتعلقة بالجانب الفيزيائي؛ الموجات الصوتية المنتقلة من فم المتكلم إلى فم السامع.وأصوات الكلام قسمان هما:

1- الأصوات الصائتة (Voyelles).

([9])- محمد يونس علي،مدخل الى اللسانيات، ص 31.

([10])- ينظر: محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة،2001، ص59.

([11])- ينظر: محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، ص 12.

([12])- ماريو باي، أسس علم اللغة تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1998، ص 40.

([13])- ابن جني، الخصائص، ج76/1 .

2: الأصوات الصامتة (Consonnes).[14]

4- اللغة اجتماعية :

اللغة يكتسبها أبناؤها كما يكتسبون باقي عاداتهم و معتقداتهم،فلا نتصور وجود أطفال في مجتمع عربي مسلم يصلون للشمس صباح مساء.وعليه لن نجدهم في مراحل اكتساب اللغة ينطقون ويتكلمون الصينية أو الهندية وهم أبناء أم البواقي،وكما أنهم لم يسبق وأن سمعوا بها على الإطلاق!. فاللغة(اللِّسان)، سلوك مكتسب من واقع الاستعمال تفرضه الجماعة اللغوية على أبنائها. فهي: "مؤسسة اجتماعية بامتياز،بحيث لا يمكن تصورها خارج المجتمع كما لا يمكن تصور أي مجتمع بدونها، الإنسان ليس تجريدا، ولكنه حصيلة اجتماعية".كما يقول كارل ماركس.[15]

5- اللغة متغيرة:

بما أن اللغة ظاهرة اجتماعية،والظواهر الاجتماعية معروف عليها التغير بتغير الزمان وحاجة الإنسان التي تستند عليها مختلف ضرورات الحياة، فكذلك اللغة تتغير. فما كان يتواصل به آباؤنا وأجدادنا لم يبق على حاله؛لأن كثيرا من المسميات التي كانت جزءا من حياتهم تجاوزها الزمن ولم تعد موجودة كالأثافي، الزنبيل، القنديل، الكانون،...والشيء نفسه معنا نحن فما نستعمله اليوم سيتجاوزه أبناؤنا وأحفادنا غدا.وهذا ما يعرف بحلول ظاهرة لغوية مكان أخرى. كما يكون التغير من مكان لآخر بسبب الجوار كما هو الحال في لهجة أم البواقي مثلا:

نجد في المناطق المجاورة لسوق أهراس وتبسة المتأثرين بدورهمكذلك باللهجة التونيسة يستبدلون الجيم زايا في مثل: زوج(اثنان) ـــ زوز، تزوزت ـــ تزوجت. مع تأنيث المذكر. ونطق التاء مع زيادة السين(تس) في منطقة سيقوس تأثرا بأهل قسنطينة في مثل: قلت لك ـــ قلتسلك، التليتلي ـــ تسلتسلي.

وفي اللِّسان العربي نجد على سبيل المثال لا الحصر: انتقال الجريدة جريد النخل إلى مجموعة الأوراق الإخبارية؛ أي الصحف. والسيارة من القافلة إلى عربة النقل الميكانيكية الحديثة. والتصويت من رفع الصوت إلى عملية الانتخاب. وهذا

([14])-ينظر: مصطفى غلفان، في اللّسانيات العامّة،المرجع السابق،ص 45، 46.

([15])-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح السيد أحمد صقر، القاهرة ،1977، ص 78.

الأمر أبانه اللِّساني دي سوسير في قوله: "كل جزء من أجزاء اللغة عرضة للتطور. هذا التغيير يحدث بنسب مختلفة ولا نشعر به".[16]

وللعلم فإن هذا الأمر أقرَّه علماء العرب قديما.فهذا ابن فارس يقول:"كان العرب في جاهليتها على إرث من آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم.فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات، أبطلت أمورا ونقلت من اللغة ألفاظ من ومواضع إلى مواضع بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفا الآخِر الأول"[17].

6- اللغة إنتاجية:

الإنتاجية خاصية اللغة الإنسانية،فهي التي تسمح للفرد البالغ العارف بقواعد لغته إنتاج عدد غير متناه من الجمل التي لم يسبق وأن سمع بها على الإطلاق.فهو ينطلق من المحدود (أصوات، وقواعد النحو والصرف)ليفتح المجال لغير المحدود، وهذا ما يؤكده كثير من اللسانيين، فهذا اندري مارتيني A. Martinet"يتكلم عن المواقف المتنوعة وغير المتناهية، وعن مسائل الخبرة التي تعبر عنها اللغة. فاللغة تبتكر بواسطة عدد محدود من الفونيمات المتوفرة لديها عددا غير متناه من الأشكال والتراكيب التي تنص على معنى معين، ويشير أيضا إميل بنفنيست E. Benveniste إلى أن جمل اللغة تُكوِّن مجموعة غير متناهية، كما يذكر هيمسلوف Hjemslewأن اللغة هي غير متناهية".[18]

7- النقل الثقافي وتعرف كذلك بـ :(إمكانية التعلم أو الانتقال اللغوي):

حاجة بني البشر بعضهم لبعض طبعُهم، والاستفادة من تجارب وخبرات السابقين وغير المنتمين للمجتمع الواحد زمانا ومكانا من ضرورات التغلب على مصاعب الحياة.ولا سبيل لذلك سوى استغلال اللغة في نقل هذه التجارب من مختلف الثقافات،ولن يتأتى هذا إلا بعملية التعلم(الاكتساب)وليس الوراثة "فاللغة المعينة إذن تنتقل من جيل إلى آخر بالتعلم، وليس بالوراثة وهذا ما يسمى بالنقل الثقافي Cultural transmissonوهذا عنصر مهم في اكتساب اللغة "[19].

8- الخطية Linèaritè:

([16])- ابن جني، الخصائص،ج1 /76 .

([17])- مصطفى غلفان، في اللّسانيات العامّة، ص140.

([18])- ميشال زكريا، الألسنية،المرجع السابق ،ص29.

([19])- محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات،مرجع سابق، ص 35.

إن طبيعة اللغة الصوتية تفرض علينا ألا نصدر أكثر من صوت واحد في الآن نفسه في عملية التواصل "ومعنى هذا أن تتابع العناصر والترتيب التي تظهر فيه،له قيم أساسية في تحديد الخطاب"[20].

9- التقطيع المزدوجDouble articulation:

إن كل الألسنة البشرية تتميز بخاصية التقطيع المزدوج أو ازدواجية النطق،وهي التي تجعلها مغايرة للأنظمة الاتصالية الأخرى وخاصة الحيوانية.

- **التقطيع الأول:**إن كل خبرة أو تجربة أو إحساس نريد تبليغه للآخر يتكون من صورة صوتية ومعنى.فمثلا إنْ أردت إخبار أحد يشاركني الزمان والمكان بوجع في رأسي، أضع يدي على رأسي وأصدر صيحة هي:(آه) وهي نفسه للأعلام بألم في رجلي أو في بطني...كما قد يكون هذا الصراخ عفويا غير متعلق بالألم. وعليه فهذا النوع من الإبلاغ مغلق لا يرقى لإقامة اتصال إنساني بمعنى الكلمة، كما لا يمكن لهذا الأصوات أن تنقل التجارب السابقة مادامت مقصورة على الزمان والمكان المشترك، وبهذا فهيتماثل نظام الاتصال الحيواني.

وكرد فعل للألم الفيزيولوجي السابق يمكن للفرد البشري أن يعبر عنه بجملة: يؤلمني رأسي. فالوحدات الست(ي+ألم+ن+ي+رأس+ي)لا تتناسب كليا مع الإحساس بالألم. كما أن كل وحدة من الوحدات السابقة يمكن أن توجد في سياق آخر مغاير تماما لما وردت فيه في هذا السياق . فوحدة الرأس نجدها في مثل : رأس القوم ،رأس الأمر، رأس الفتنة، رأس الجبل، رأس الرمح، رأس الحانوت، رأس الوادي،...

وكل جملة يمكن تقسيمها إلى وحدات صغرى دالة يقال لها : المونيمات (monèmes) أو اللفاظم تشكل التقطيع الأول،وهو الذي يتيح اقتصادا كبيرا في الكلام، و لولاه لوجب علينا استحضار كل صوت لكل تجربة، هذا بغض النظر عن اكتساب أو استحضار ذاكرة عظمى لادّخار عدد هائل من الأصوات المناسبة لحالاتنا وتجاربنا اليومية. ولذلك شتان بين هذه الصيحات -العفوية أو المقصودة- و بين اللغة التي تتيح لنا بفضل بضعة ألاف الوحدات التعبيرية وتنويع استعمالها من تجربة إلى أخرى، الاتصال الواسع و الإفصاح عن كل شيء.

([20])- مصطفى غلفان، في اللّسانيا العامّة ،مرجع سابق، ص 78

- **التقطيع الثاني**: وهو متعلق بتقطيع الوحدات الدَّالة المونيمات الناتجة عن التقطيع الأول إلى وحدات صغرى غير دالة. فعند تقطيعنا للوحدة (رأس) إلى (ر+ـِ +ء+ـْ+س) هذه،الصغرى تسمى حروف المباني،(الفونيماتtsphonèm) وهي غير قابلة للتحليل. لذلك فإن اللغات جميعها تتميز بهذا النمط من التحليل القائم على التقطيع المزدوج:

- **أحدهما:** مستوى اللفاظم(les monèmes)، وهي الوحدات الدالة التي تقبل التحليل إلى وحدات أصغر عديمة الدلالة.

والآخر: مستوى الفونيمات(lesphonèmes)، وهي الوحدات الصوتية الدنيا التي ليست لها دلالة في ذاتها وقادرة على تغيير المعنى[21].

إضافة إلى هذه الخصائص توجد الاعتباطية التي سبق وأن تعرضنا لها في المحاضرة السابقة.

([21])-ينظر، كلا من: أندريه مارتينيه، مبادئ في اللّسانيات العامّة، تر سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، ص 20،19،18 وينظر: زبير دراقي، ص 74، 75، وينظر:أحمد حساني، مباحث في اللسانيات،ص 112،111.